الباب الرابع

الشعر ديوان العرب

أشعر الناس:

يحكى أن المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي، صاحب المفضليات والأمثال، ومعاني الشعر، سئل عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر؟. قال: أشعرهما الفرزدق، قيل له:ولم؟. قال : لأن الفرزدق قال بيتا هجا فيه قبيلتين، ومدح فيه قبيلتين وأحسن في ذلك حيث قال:

عجبت لعجل إذ تهاجى عبيدها كما آل يربوع هجوا آل دارم

فقيل له :لقد قال جرير:

إن الفرزدق والبعيث وأمه وأبا البعيث لشر ما استار

فقال المفضل الضبي: وأي شيء أهون من أن يقول إنسان: فلان وفلان، وفلان، والناس كلهم بنو الفاعلة؟.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثني: كان الشعراء في الجاهلية من قيس،وليس في الإسلام مثل حظ تميم في الشعر، وأشعر تميم جرير والفرزدق ومن بني تغلب الأخطل.

وأبو عبيدة معمر بن المثني التميمي بالولاء، يعدّ من أئمة العلم بالأدب واللغة،ووصفه الجاحظ بقوله: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، وكان إباضيّاً من حفاظ الحديث، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من مائتي مؤلف، ومن أشهرها مجاز القرآن في مجلدين، ولد أبو عبيدة معمر بن المثني في البصرة ، وتوفي فيها وله من العمر تسعة وتسعون عاماً.

وقال يونس بن حبيب الضبي بالولاء، أبو عبد الرحمن،وكان إما النحاة في عصره بالبصرة: ما ذكر جرير والفرزدق في مجلس شهدته قط فاتفق المجلس على تقديم أحدهما على الآخر، وكان يونس بن حبيب يميل إلى تفضيل الفرزدق.

ومما يحكى أن الفرزدق همام بن غالب مرَّ بأبي ميادة الرماح بن أبرد الذبياني ينشد، وحوله الناس قائلاً:

لو أن جميع الناس كانوا بربوة وجئت بجدي ظالم وابن ظالم

لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

فسمعه الفرزدق، فقال له: أما والله، يا ابن الفارسية لتدعنه لي أو لأنبشن أمك من قبرها، فقال له ابن ميادة: خذه لا بارك الله لك فيه، فقال الفرزدق:

لو أن جميع الناس كانوا بربوة وجئت بجدي دارم وابن دارم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

ويروى أن جريراً والفرزدق، دخلا على أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك، وعنده بنية له يشمها، فقال جرير: ما هذه يا أمير المؤمنين عندك؟.

فقال أمير المؤمنين: بنية لي، قال جرير: بارك الله لأمير المؤمنين فيها، فقال الفرزدق: إن يكن دارم يضرب فيها فهي أكرم العرب ،أي إذا كان لها نسب يصلها بدارم.

ثم أقبل يزيد بن عبد الملك على جرير، فقال: يا جرير: ما لك والفرزدق؟ قال جرير: إنه يا أمير المؤمنين يظلمني، ويبغي عليّ، فقال الفرزدق: يا أمير المؤمنين وجدت آبائي يظلمون آباءه، فسرت فيه بسيرتهم.

قال جرير: أمَا والله لتردنّ الكبائر على أسافلها سائر اليوم، فقال الفرزدق: أما بك يا حمار بني كلاب فلا، ولكن إن شاء صاحب السرير فلا والله، ما لي كفء غيره، فجعل يزيد بن عبد الملك يضحك معجباً بقول الفرزدق فيه.

أصدق كلمة قالها شاعر:

يقال في الخبر: إن أصدق بيت قالته العرب ،هو بيت الشاعرالمخضرم لبيد بن ربيعة بن مالك العامري، حيث قال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

والبيت من قصيدة عدد أبياتها أكثر من خمسين بيتاً قالها لبيد في رثاء ملك الحيرة النعما ن بن المنذر، وأولها:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
حبائله مبثوثة في سبيله ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه قضى عملاً والمرء ما عاش عامل

فقولا له إن كان يقسم أمره ألمّا يعظك الدهر أمك ها بل
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقياً ودون معدّ فلتزعك العواذل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي رأي إلى الله واسل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله الخصائل

وفي صحيحي البخاري ومسلم، عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد**»: «**ألا كل شيء ما خلا الله باطل**». وفي رواية لهما: «**أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد: ألا كل شيء ماخلا الله باطل**».

وقد روى أبو إسحاق في مغازيه، أن عثمان بن مظعون ﷺ، مر بمجلس من مجالس قريش في صدر الإسلام، ولبيد بن ربيعة ﷺ ينشدهم قوله: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل). فقال عثمان : كذبت، نعيم الجنة لا يزول أبداً، فقال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟.

فقال رجل من قريش: إن هذا سفيه من سفهائنا ، قد فارق ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عثمان، فخضرها ، فقال الوليد بن المغيرة لعثمان :

إن كانت عينك لغنية عما أصابها، لم رددت جواري؟ وكان عثمان في جوار الوليد بن المغيرة، فقال عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة لمثل ما أصاب أختها في الله ، لا حاجة لي في جوارك.

فواصل لبيد قصيدته في رثاء الملك النعمان بن المنذر ملك الحيرة:

ليبك على النعمان شرب وقينة ومختبطات كالسعالى أرامل
فأمسى كأحلام النيام نعيمهم وأي نعيم خلته لا يزايل

أعجوبة الزمان حماد الراوية:

وحكى حماد الراوية، قال: أنشدني الفرزدق يوماً شعراً له، ثم قال لي: أتيت الكلب (يعني جريراً) قلت: نعم، قال: أفأنا أشعر أم هو؟ قلت: أنت في بعض، وهو في بعض، قال: لم تناصحني، قال: قلت :هو أشعر منك إذا أرخي من خناقه، أي إذا ترك على سجيته، وأعطي حرية الكلام.

وأنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت، قال: قد قضيت لي والله عليه، وهل الشعر إلا في الخير والشر.

وحماد الراوية من غرائب الزمان،هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، هو أول من لقب بالراوية، وكان من أعلم الناس بأيام العرب،وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، وأصله من الديلم، ومولده في الكوفة، جال في البادية ورحل إلى الشام، وتقدم عند بني أمية، فكانوا يستزيرونه أي يطلبون زيارته، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها، ويجزلون صلته.

وهو الذي جمع السبع الطوال المعروفة بالمعلقات، قال له الوليد بن يزيد الأموي: بم استحققت لقب الراوية؟ قال: لأني يا أمير المؤمنين، أروي لكل شاعر تعرفه أو سمعت به، ثم إني لا ينشدني أحد شعراً قديماً أو محدثاً إلا ميزت القديم من الحديث، قال: فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟. قال حماد: كثير ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات. قال الوليد: سأمتحنك في هذا، ثم أمره أمير المؤمنين بالإنشاد: فأنشد حتى ضجر الوليد بن عبد الملك، فوكل به من يثق بصدقه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة، فأخبر الوليد بذلك، فأمر له بمائة ألف درهم.

وكان يوصف حماد بالراوية بعدم المبالاة في أمر الدين، فوصفه أحد الشعراء بقوله:

نعم الفتى لو كان يعرف ربه أو حين وقت صلاته حماد
ضمت مشافره الشمول فأنفه مثل القدوم يسنها الحداد
وأبيضَّ من شرب المدامة وجهه فبياضه يوم الحساب سواد

أمير المؤمنين هشام يطلب حماد الراوية :

وروى أحمد بن عبيد عن حماد أنه قال: كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك، فكان هشام بن عبد الملك يجفوني لذلك، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام جفاني، فخفته ومكثت في بيتي سنة كاملة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سراً، فلمَّا لم أسمع أحداً يذكرني أمنت وخرجت فصليت الجمعة، ثم جلست عند باب الفيل، فإذا شرطيان قد وقفا علي فقالا لي: يا حماد: أجب الأمير يوسف بن عمر،فقلت في نفسي: هذا ما كنت أحذر، فصرت إليه فرمى كتاباً إلي فيه: من عبد الله هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر:

أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع ، وٱدفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسيرعليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق.

فأخذتها وركبته، وسرت حتى وافيت باب هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين، فاستأذنت في الدخول إليه، فأذن لي فدخلت عليه، في دار مفروشة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وحيطانها كذلك، وهشام جالس وعليه ثياب خز حمر، وقد تضمّخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مبثوث في أواني الذهب يقلبه بيده، فتفوح روائحه.

فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، واستدناني فدنوت حتى قبَّلت رجله، فإذا جاريتان لم أر مثلهما، في أذن كل واحدة منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان توقدان، فقال لي: كيف أنت يا حماد،وكيف حالك؟.

قلت: بخير يا أمير المؤمنين،قال: أتدري فيما بعثت إليك؟. قلت: لا. قال : بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر من قاله؟. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال:

فدعت بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق

قلت: يا أميرالمؤمنين، قائل هذا البيت هو عدي بن زيد بن حماد بن زيد العبادي التميمي، من قصيدة له. قال هشام: أنشدنيها، فأنشدتها:

بكر العاذلون في فلق الصبح يقولون لي ألا تستفيق
ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق
لست أدري إذ أكثروا العذل عندي أعدو يلومني أم صديق

زانهـا حسنها وفـرع عمـيم وأثيث صلـت الجـبين أنـيـق
وثنايـا مفـلجـات عـذاب لا قصـاراً تـرى ولا هن روق
فدعت بالصبوح يوماً فجاءت قـيـنـة في يمينـهـا إبـريـق
فدعته على عقار كعين الدِّيك صفي سلا فها الرووق
ثم كـان المزاج مـاء غـمـام غـيـر آجـن ولا مـطـروق

قال: فطرب هشام وقال: أحسنت والله يا حماد، سلني حوائجك، فقلت: يا أمير المؤمنين، كائنة ما كانت؟ قال: نعم. قلت: إحدى الجاريتين. قال: هما معا وبما عليهما، ومالهما لك،فوهبهما لي، وأنزلني في داره، ثم أمر بنقلي من غد إلى منزل أعد لي، فانتقلت إليه، فوجدت فيه الجاريتين،ومالهما، وكل ما يحتاج إليه فأقمت عنده مدة فوصلني منه مائة ألف درهم.

نصيحة شاعر:

يحكى أن لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي - الشاعر الجاهلي - من أهل الحيرة ـ كان يحسن الفارسية، واتصل بكسرى ـ سا بور ـ ذي الأكتاف، فكان من كتَّابه، والمطَّلعين على أسرار دولته، ومن مقدمي تراجمته.

رأى شيئاً من كسرى غير عادي، ورآه يعد العدة لغزو قبيلته، قبيلة إياد، والسبب أن قومه بني إياد، كانوا يغيرون على ما يليهم من أرض السواد، ويغزون ملوك آل نصر، حتى أصابوا امرأة من أشراف العجم، كانت عروساً قد زفت إلى زوجها،فولي ذلك منها سفهاؤهم ، وأحداثهم، فسار إليهم من كان يليهم من الفرس، فانحازت إياد إلى العراق، وجعلوا يعبرون إبلهم في السفن المعروفة لديهم بالقراقير، ويقطعون بها الفرات،وجعل زاجرهم يقول:

بئس مناخ الحلقات الدهم في ساحة القرقور وسط اليم

وعبر الفرات وتبعهم الفرس ، فقالت كاهنة من إياد تسجع لهم:

إن يقتلوا منكم غلاماً دما أو يأخذوا ذلك شيخاً هما
تخضبوا نحورهم دما وتروا منهم سيوفاً ظلما

فخرج منهم غلام يقال له ثواب بن محجن، بإبل لأبيه فلقيه الفرس فقتلوه، وأخذوا الإبل ، ولقيتهم إياد في آخر النهار فهزمت الفرس.

ثم إن إياداً بيتت جمع الفرس حين عبروا شاطىء الفرات الغربي، فلم يفلت منهم إلا القليل، وجمعوا به جماجمهم وأجسادهم فصارت كالتل العظيم، وكان إلى جانبهم دير، فتسمّى بعد ذلك بدير الجماجم، تخليداً لتلك الحادثة.

وبلغ الخبر كسرى، فبعث مالك بن حارثة ووجه معه أربعة آلاف من الأساورة، فكتب لقيط بن يعمر الإيادي إلى قومه، قصيدة يخبرهم بذلك، ويحرّضهم على القتال جاء فيها:

يا دار عمرة من محتلها الجزعا ... هاجت لي الهم والأحزان والوجعا
أبلغ إياداً وخلل في سرا تهم ... أني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً ... على نسائكم كسرى وما جمعا
هو الجلاء الذي تبقى مذلته ... إن طار طائركم يوماً وإن وقعا
هو الفناء الذي يجتث أصلكم ... فليس مَنْ قد رأى رأياً كمن سمعا
يا لهف نفسيَ إن كانت أموركم ... شتّى وأحكم أمر الناس فاجّمعا
ألا تخافون قوماً لا أبا لكم ... أمسوا إليكم كأمثال الدبا سرعا
لو أن جمعهم راموا بهدته ... شم الشماريخ من ثهلان لانصدعا
في كل يوم يسنون الحراب لكم ... لا يهجعون إذا ما غافل هجعا
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية ... لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا
ما لي أراكم نياماً في بلهنية ... وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
صونوا جياد كم وأجلوا سيوفكم ... وجددوا للقسي النبل والشرعا
فقلدوا أمركم لله درّكم ... رحب الذراع بأمرالحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا حل مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه ... هم يكاد حشاه يقطع الضلعا
مسهد النوم تعنيه ثغوركم ... يروم منها إلى الأعداء مطلعا
ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متبعاً طوراً ومتبعا
فليس يشغله مال يثمره ... عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم السن لا قحماً ولا ضرعا
كمالك بن قنان أو كصاحبه زيد القنا حين لاقى الحارثين معا
إذ عابه عائب يوماً فقال له دمث لجنبك قبل الليل مضطجعا
فساوروه فألفوه أخا علل في الحرب يختتل الرئبال والسبعا
عبل الذراع أبيًّا ذا مزابنة في الحرب لا عاجزاً نكساً ولا ورعا
مستنجداً يتحدّى الناس كلهم لو صارعوه جميعاً في الورى صرعا
لا يثمر المال للأعداء إنهم إن يظهروا يحتووكم والتلاد معا
ماذا يرد عليكم عز دولتكم إن ضاع آخره أو ذل واتضعا
هذا كتابي إليكم والنذير لكم لمن رأى الرأي بالإبرام قد نصعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

ولقد محض الشاعر قومه النصح، لما رأى تحرك كسرى لغزو قومه، ورغم ذلك فإن إياداً لم تعر لنصيحة لقيط أذناً صاغية، ظناً منها أن كسرى لا يمكن أن يغزوهم، فلم يستعد قوم إياد لذلك، ورسالة لقيط لقومه واضحة المعالم ، لإيقاظ النائم ، وتنبيه الغافل، حيث يقول:

سلام في الصحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد أتاكم فلا يحبسكم سوق النقاد

فسار مالك بن حارثة التغلبي قائداً لجيش الفرس، فلقي إياداً على غرة منهم وغفلة ، إذ لم يلتفتوا إلى قول لقيط وتحذيره إياهم ثقة بكسرى، لا يمكن أن يقدم لحربهم، فلقيهم بالجزيرة في موضع يقال له مرج الأكم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فظفر بهم وهزمهم، وأنقذ ما كانوا أصابوا من الفرس يوم الفرات، ولحقت إياد بأطراف الشام، فأقاموا بها حتى أمنوا على أنفسهم وأهليهم وأولادهم، ثم تركوا أطراف الشام ولحقوا بقومهم ببلد الروم بناحية أنقرة، وفي ذلك يقول شاعرهم:

حلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطراد

ولقد كان لقيط بن يعمر الإيادي ناصحا لقومه، محبًّا لهم وكانت معرفته بلغة الفرس سبباً لمعرفة ما دبر ضد قومه ، وقد حذر وأنذر مخاطباً قومه:

هذا كتابي إليكم والنذير لكم لمن رأى الرأي بالإبرام قد نصعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

نصح قومه في اختيار من يقدمونه قائداً عليهم، وأن يكون متصفاً بصفات يحتاج إليها القائد. إرجع إلى القصيدة ففيها الإشارة إلى ذلك.

بديهة الشاعر أبي تمام:

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي يمدح الأمير:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال له من حضر المجلس، حسداً من عند أنفسهم لبراعته في الشعر: ما زدت أن شبهت الأمير بمن هو أقل وأدنى منه، فالأمير أعظم بمن شبهته بهم، فقال أبو تمام بعد أن سكت برهة من الزمن قصيرة:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

ويشير أبو تمام إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [سورة النور: ٣٥].

إنها براعة تستحق الثناء والإعجاب، فقضى بذلك على حسد الحاسدين وتفوق على المعاندين والكائدين، ونال من الأمير منزلة المقربين المبجلين، ونال الجائزة السنية لأفضل الحاضرين.

فطنة شاعر وقوته في وقت الشدة:

ومن تلك المواقف التي سجلها التأريخ ، وتناقلها الرواة جيلاً عن جيل موقف الشاعر البارع الفصيح الشجاع ، تميم بن جميل الخارجي،وحكاية ذلك أن تميماً هذا كان قد خرج على أمير المؤمنين محمد بن هارون الرشيد المعروف بالمعتصم بالله، فأسر تميم بن جميل، وأُتي به إلى المعتصم، فلما رآه المعتصم بالله أعجبه ولفت نظره مشيته وهو يُقاد إلى الموت غير مكترث بذلك ، فاستنطقه أمير المؤمنين المعتصم مختبراً عقله وفصاحته وبلاغته في ذلك الموقف الحرج، الذي يذهل قلوب الأبطال، لاسيما إذا كان له أولاد صغار ضعاف.

فقال تميم بن جميل للمعتصم رداً على قول المعتصم إذ قال له: يا تميم إن كان لك عذر فأت به، فقال تميم: أما إذ أذن أمير المؤمنين، جبر الله به صدع الدين ولمَّ به شعث المسلمين، وأخمد شهاب الباطل، وأنار السبيل للحق المبين، فالذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسنة، وتصدع الأفئدة، أيم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق إلا العفو أو الانتقام، وأمير المؤمنين أقرب إلى العفو منه عن الانتقام، وهو أليق شيمه الطاهرة، ثم أنشد هذه الأبيات التي صور فيها حاله، وحالة بناته الضعاف، والتي أبكت المعتصم فرقت قلبه:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرىء مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت فإنني ... لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا

فما تمالك المعتصم بالله ، بعد أن سمع تلك الأبيات، حتى انفجر بالبكاء، فقال: إن من البيان لسحراً، كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل، وقد وهبتك لله ولصبيتك،

فأطلق سراحه، وأعطاه خمسين ألف درهم، وقال الشاعر الحكيم:

ولرب نـازلة يضيـق بها الفـتى ذرعـاً وعـند الله مـنها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتـها فـرجـت وكـنت أظنها لا تفرج

ومما قيل في حب الأوطان:

إن تعلق الإنسان بوطنه، سبب لعمارة الأرض واستمرار الحياة، وقد غرس الله محبة البقاع في قلوب أهلها، وقد أشار الله في كتابه العزيز إلى محبة الناس للوطن، حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [سورة النساء: ٦٦].

وقد تضطر الإنسان ظروف قاهرة للخروج من الوطن، فيسافر تحقيقاً لما تصبو إليه نفسه، وقد تختلف مشارب الناس في رغبة ترك الوطن والسفر ، فمنهم من يسافر لطلب العلم ، ومنهم من يسافر في سبيل إعلاء كلمة الله أو للجهاد في سبيله سبحانه وتعالى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة النساء: ١٠٠].

وفيما ينسب في الحثّ على السفر والتغرب عن الأوطان قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حيث قال:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تَفَرُّجُ هَـمٍّ واكتساب معيشـــة وعلم وآداب وصحبة ماجـــد
فإن قيل في الأسفار هم وكربـة وتشتيت شمل وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير لـه من حياتـه بـدار هـوان بين واشٍ وحاسـد

وقال الإمام الشافعي في الحض على السفر مبرزاً بعض فوائد السفر حيث قال:

سافر تجـد عوضاً عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
ما في المقام لذي لب وذي أدب معزة فاترك الأوطان واغـــترب
إني رأيت وقوف الماء يفســـده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والبدر لولا أفول منه ما نظرت إليه في كل حين عين مرتـقـب

والأسد لولا فراق الغاب ما قنصت والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة لملَّها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في معادنه والعود في أرضه نوع من الخشب
فإن تغرب هذا عز مطلبه وإن أقام فلا يعلو إلى الرتب

وقال إبراهيم الغزي :

ليست بأوطانك اللائي نشأت بها لكن ديار الذي تهواه أوطان
خير المواطن ما للنفس فيه هوى سم الخياط مع الأحباب ميدان
كل الديار إذا فكرت واحدة مع ا لحبيب وكل الناس إخوان
أفدي الذين دنوا والهجر يبعدهم والنازحين وهم في القلب سكان
كنا وكانوا بأهنا العيش ثم نأوا كأننا قط ما كنا ولا كانوا

وقال الشاعر ابن الرومي، وقد أجاد في حب الوطن:

ولي وطن آليت أن لا أبيعه وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا في ظلا لكا
وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنا لكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذا لكا
وقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

وقال أبو تمام مرغِّبا في السفر:

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديبا جتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ، وهو يتفكر معاهد صباه،وقد ألم به شيء من المرض بعد هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، في الأيام الأولى في المدينة المنورة متفكراً الوطن:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أَرِدَنْ يوماً مياه مجنة ويبدو لعيني شامة وطفيل

وقال آخر مرغباً في السفر:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله في منزل فالحزم أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءل جد في طلب الكمال فحازه متنقلا
سفها لحلمك إن رضيت بمشرب رنق ورزق الله قد ملأ الملا
فارق ترق كالسيف سل فبان في متنيه ما أخفى القراب وأخملا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتة ما الموت إلا أن تعيش مذللا

وقال آخر:

بلاد الله واسعة فضاء ورزق الله في الدنيا فسيح
فقل للقاعدين على هوان إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

ويروى أن أصيل بن سفيان الغفاري، قدم على رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فقال له الرسول: يا أصيل كيف عهدت مكة؟. قال: عهدتها والله قد أخصبت جنباتها، وأغدق إذخرها،وأسلب ثمامها، وأمشر سلمها، فقال له الرسول ﷺ: حسبك يا أصيل، وقد اغرورقت عينا رسول الله ﷺ.

جواب جرير عن أشعر الناس:

وقد اتفق أهل العلم بالشعر، أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، وقيل لجرير: من أشعر الناس؟. قال: أنا لولا الخنساء، قيل بم فضلتك؟ قال بقولها:

إن الزمان ولا يفنى له عجب أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراس
إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ودخلت يوماً على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعليها صدار من شعر، فقالت لها: ما هذا؟ فو الله لقد مات رسول الله ﷺ، فلم ألبس صداراً عليه.

قالت: إن له حديثاً، قالت: وما هو؟. قالت: زوَّجني أبي سيداً من سادا ت قومي، وكان متلافاً معطاء، فأنفد ماله، وقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلت : إلى أخي صخر، فأتيناه فقاسمنا ماله وأعطانا خير النصفين، فأقبل زوجي يعطي ويهب حتى أنفده، ثم قال لي: إلى أين يا خنساء؟. قلت: إلى أخي صخر، فأتيناه وقاسمنا ماله وأعطانا خير النصفين إلى الثالثة.

فقالت له امرأته: أما ترضى أن تقاسمهم مالك، حتى تعطيهم خير النصفين؟ فقال:

والله لا أمنحها شرارها ولو هلكت قددت خمارها

واتخذ من شعر صدارها

وكان أخوها صخر شجاعاً كريماً جواداً، وقد رثته بمراثٍ كثيرة، تسكب في رثائه العبرات، وتقطع قلبها الحسرات،فتظهر نفثات قلبها المكلوم، مشيدة بمناقب أخيها صخر ، وفضائله ، ومواقفه النبيلة، وفيما يلي بعض الأبيات:

يؤرقني التذكر حين أمسي فأصبح قد بليت بفر ط نكس

على صخر وأي فتى كصخر ليوم كريهة وطعان خلس

فلم أر مثله رزءاً لجن ولم أر مثله رزءاً لإنس

أشد على صروف الدهر أيداً وأفضل في الخطوب بغير لبس

وضيف طارق أو مستجير يروع قلبه من كل جرس

فأكرمه وأمنه فأمسى خلياً باله من كل بؤس

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكين مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

فلا والله لا أنساك حتى أفارق مهجتي ويشق رمسي

فقد ودعت يوم فراق صخر أبي حسان لذاتي وأنسي

فيا لهفي عليه ولهف أمي أيصبح في التراب وفيه يمسي

إنها تبكي تلك المكارم، والأخلاق الفاضلة، التي يعتز بها القوم في الجاهلية تبكي الشجاعة والإقدام، تبكي الجود والكرم والسخاء، تبكي المروءة والوفاء.

صرخة شاعر:

لقد كان حافظ إبراهيم، شاعر النيل، من أنصار اللغة ا لعربية، وكان في عصره من جهابذة اللغة العربية، مجموعة من المتضلعين، قاموا بتحقيق كثير من أمهات الكتب اللغوية والأدبية، فهذا شاعر النيل حافظ إبراهيم، يقول عن اللغة العربية:

وسعت كتَاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صرخاتي
أرى لرجال الغرب عزًّا ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات
سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً ... يعز عليها أن تلين قناتي
أيهجرني قومي عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل بروات

تلك هي صرخة شاعر النيل حافظ إبراهيم، وقد كان في زمنه من أرباب، اللغة العربية وفطاحلها عدد كبير،وقد أخرجت لنا المطابع ، تلك أمهات كتب اللغة وقواميسها، الشيء الكثير،والذي كان يخشاه الشاعر حافظ إبراهيم، هو تلك الأبواق التي بدأت تنادي باستخدام اللهجة المحلية،بدلا عن اللغة العربية، لأن ابتعاد المسلمين عن تعلم وتعليم اللغة العربية، معناه القضاء على الإسلام، فأين موقع اللغة العربية اليوم، إذ نبذها أهلها وأبناؤها، بدعوى أنها ليست لغة العلم والرقي والتقدم،وأنها تسبب عرقلة في سبيل التطور،إن التطور نعلمه بالأخلاق والصدق والأمانة، والتعاون والتراحم، والتناصح في الدين، ولما ورد عن رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة...إلخ**».

صرخة شاعر عن تغير الإخوان:

قال أحد الشعراء في المعنى:

وإخوان حسبتهم دروعاً ... فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهم سهاماً صائبات ... فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد سعينا كل سعي ... فقلت نعم ولكن في فسادي
وقالوا قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا ولكن عن ودادي

وقال شاعر في المعنى:

وخليل لم أخنه ساعة ... في دمي كفيه ظلماً قد غمس
كان في سري وجهري ثقتي ... لست عنه في مهم أحرس
ستر البغض بألفاظ الهوى ... وادعى الود بغش و غلس
إن رآني قال لي خيراً وإن ... غبت عنه قال شرًّا ودحس
ثم لما أمكنته فرصة ... حمل السيف على نحري النفس
وأراد الروح لكن خانه ... قدر أيقظ من كان نعس

وقال شاعر الرسول ﷺ،حسان بن ثابت الأنصاري:

أخلاء الرخاء هم كثير ... ولكن في البلاء هم قليل
فلا تغررك خلة من تؤاخي ... فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفيٌّ ... ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خلٍّ له حسب ودين ... فذاك كما يقول هو الفعول

وقال أبو العلاء المعري في المعنى:

فظن بسائر الإخوان شرًّا ... ولا تأمن على سر فؤادا
فلو خبرتهم الجوزاء خبري ... لما طلعت مخافة أن تكادا
تجنبت الأنام فلا أواخي ... وغبت عن الأنام فلا أعادا
فأي الناس أجعله صديقاً ... وأي الأرض أسكنها ارتيادا

ويقول ابن الرومي في تغير الإخوان:

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا ... سهام العدى عني فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر ... على حين خذلان اليمين شمالها
فإن كنتم لم تحفظوا لمودتي ... ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا موقف المعذور عني بمعزل ... وخلوا نبالي والعدى بنبالها

وقال ابن سنان الخفاجي في المعنى:

وزهدني في الناس معرفتي بهم وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلم ترني الأيام خلاًّ تسرني مبادئه إلا ساءني في العواقب
ولا كنت أرجوه لدفع ملمة من الدهر إلا كان إحدى المصائب

وقال شاعر آخر في المعنى:

خبرت بني الأيام طراً فلم أجد صديقاً صدوقاً مسعداً في النوائب
و أصفيتهم مني الوداد فقابلوا صفاء ودادي بالقذى والشوائب
وما اخترت منه صاحباً وارتضيته فأحمدته في فعله والعواقب

وصية الخنساء لأولادها الأربعة:

وها هي الخنساء، عندما أكرمها الله ووفقها، للدخول في الإسلام وأيدها الله بروح منه، وحبب إليها الجهاد في سبيل الله، أوصت أولادها الأربعة للجهاد في سبيل الله فنفثت فيهم روح الشجاعة الإيمانية، في حرب القادسية، فقالت لهم أول الليل: (يا بني إنكم أسلمتم طوعاً، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد علمتم ما أعد الله للمسلمين المؤمنين ، من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠].

فإذا أصبحتم غداً ـ إن شاء الله ـ سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وحلت ناراً على أرواقها، فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها،تظفروا الغنم والكرامة في دار الخلد والكرامة،والمثوى والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصيحتها، متزودين بتوجيهاتها، فتقدموا فقاتلوا قتال الأبطال الشجعان المؤمنين، وأبلوا البلاء الحسن، فارتجز الأول قائلا:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
بمقالة ذات بيان واضحة وإنما تلقون عند الصابحة

فقاتل حتى قتل شهيداً.

وأنشد الثاني وهو يقاتل حتى استشهد قائلاً:

إن العجوز ذات حزم وجلد قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبرًّا بالولد فباكروا الحرب حماة في العدد

وأنشد الثالث ، وهو يخوض غمار المعركة حتى استشهد قائلاً:

والله لا نعصي العجوز حرفا نصحاً وبرًّا صادقاً ولطفا
فبادروا الحرب الضروس زحفا حتى تلفوا آل كسرى لفّا

ثم تقدم الرابع والأخير منشداً قائلاً: يقاتل في سبيل الله حتى استشهد:

لست لخنساء ولا لألأ خزم ولا لعمرو ذي السعاء الأقدم
إن لم أرد في الجيش جنس الأعجمي ماض على الهول خضم حضرم

فلما بلغها خبر استشهادهم قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في سبيل الله، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته، ويروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، كان يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة،حتى قُبِضَت ﷺ أجمعين.